CJSP
ISSN-2536-0027

CAMBRIDGE
RESEARCH AND CONFERENCES CENTER

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية
CAMBRIDGE SCIENTIFIC JOURNAL

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية

مجلة علمية محكمة تصدر
عن مركز كامبريدج للبحوث
والمؤتمرات في مملكة البحرين

العدد ـ ٣٥ ـ تموز ـ ٢٠٢٤

صدر العدد بالتعاون مع

جامعة المشرق

العراق بغداد .طريق المطار الدولي

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الخامس الثلاثون – تموز ٢٠٢٤– محرم ١٤٤٦
ISSN-2536-0027

المناهج النقدية وإشكالية تطبيقها على النص العربي...المنهج التاريخي والتفكيكي اختياراً

الباحث معاذ تركي نواف الفراجي
الجامعة الإسلامية في لبنان
Maathtrkiey٤٥@gmail.com
المشرف الأستاذ الدكتور جان عبدالله توما

الملخص:

تحتل المناهج النقديَّة حيزًا كبيرًا في الدرس النقدي الحديث، باعتبارها أداةً وطريقًا لفهم النص الأدبي فهمًا صحيحًا، ومعرف مقاصد المبدع وغايته، ولكننا نجد أنفسنا أمام مأزق حقيقي إذا عرضنا هذه المناهج وحاولنا تطبيقها على النص العربي، فهو نقد كبير وكثير ومختلف عن ثقافتنا، بسبب عبثية بعضه ولا معقوليته، وجموح بعضه ومغالاته، ومن غموضه وعتمته، ومن تلاعب بالنصوص ودلالتها، مثلما فعلت التفكيكية التي قالت بموت المؤلف واعطاء دور كبير للقارئ ومشاركته في عملية التأليف وانتاج الدلالة. وقد اقتصرتُ في هذا البحث على منهجين: أولها التاريخي، وهو من المناهج السياقية الذي يعتمد على المؤلف وسيرته وظروفه التاريخية في تفسير النص الأدبي، والآخر التفكيكي، وهو من المناهج النصيَّة التي تقول بموت المؤلف وتسعى إلى عدم الثبات على دلالةٍ واحدةٍ، بل دلالات متعددة لا تعرف الثبات.

Summary:

Critical approaches occupy a large space in the modern critical lesson, as they are a tool and a way to understand the literary text correctly, and to know the creator's intentions and goals. However, we find ourselves facing a real dilemma if we present these approaches and try to apply them to the Arabic text, as it is a great and abundant criticism that is different from our culture, due to the absurdity of it. Some of it and its unreasonableness, the wildness and exaggerations of some of it, its ambiguity and opacity, and the manipulation of texts and their meaning, just as deconstructionism did, which called for the death of the author and gave a major role to the reader and his participation in the process of authorship and the production of meaning. In this research, I have limited myself to two approaches: the first is historical, which is one of the contextual approaches that depends on the author, his biography, and his historical circumstances in interpreting the literary text, and the other is deconstructive, which is one of the textual approaches that say the death of the author and seeks not to stick to one meaning, but rather multiple meanings that do not Know persistence.

المقدمة

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الخامس الثلاثون – تموز ٢٠٢٤– محرم ١٤٤٦
ISSN-2536-0027

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، محمد الصادق الأمين، وعلى عترته من آل بيته وصحابته الغر الميامين، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم اللقاء والدين.

وبعد،

النص الأدبي نصٌّ خلاق ينطوي على مجموعة من الدلالات والمقصدية التي يريد المبدع أن يوصلها إلى قارئ، وهذه الدلالة التي سرعان ما تتكشف وتتفتح للقارئ تحتاج إلى قارئ وناقدٍ حصيف، يستعين بمجموعةٍ من الدوال والأدوات ومنها المناهج النقدية التي أتت في سبيل أن تكون قراءة النصوص قراءة منظمةً، باعتبار أن النقد مرجعه العقل لا الذوق، وأن الاعتماد على الذوق بشكل مطلق باب لإشاعة الفوضى النقدية، فالتعليل والتحليل عملية عقلية؛ لأنَّه رد الظواهر إلى أسبابها، مما يجعل الذوق خطوة للنقد وليس النقد الذي يعتمد على جملة من الأدوات في تحليله ذاك أو تعليله؛ فهو يوظف كل ما يستطيع توظيفه من علومٍ تتصل بعمله النقدي؛ فهو يستعين بعلم النفس بكل ما قد وصل إليه من نتائج، وذلك حين يُحاول النظر إلى العمل العلمي من هذه الوجهة التي تتسلَّل بواسطة النص إلى أعماق اللاشعور عند كاتبه، وهو يوظف الأنثروبولوجيا بكل ما قد وصلت إليه في بحوثها الحديثة، لتُعينه على استخراج العناصر الأسطورية المتصلة بحياة الإنسان في طفولتها وبكارتها، ولنُلاحظْ هنا أن الفولكلور يمكن أن يُعَد فرعًا من الدراسة الأنثروبولوجية، ولا شك أن الاهتمام الحديث بهذا الفرع قد يكشف للناقد عما ينطوي عليه العمل المنقود من جذورٍ ضاربة في صميم النفس الإنسانية كما تتبدَّى في مأثوراتها الشعبية؛ إما على نطاقٍ قومي ضيق، وإما على نطاقٍ إنساني واسع، وكذلك يستخدم الناقد الدراسات اللغوية الحديثة — وقد كثُرت وتشعَّبت — ليُفيد منها ما أسعفته ملكاته النقدية، عندما ينظر إلى الأثر الأدبي نظرة التحليل اللغوي لكلماته وعباراته، وما تدل عليه داخل النفس أو خارجها، بل إن الناقد ليستخدم العلوم الطبيعية الحديثة نفسها في عمله، وأول ما يُذكَر في هذا الصدد استخدامه للمنهج التجريبي الذي نما ودقَّ في مجال تلك العلوم، ثم نذكُر بعد ذلك نظرياتٍ علميةً بعينها كانت بعيدة المدى في تأثيرها على الفكر المعاصر، الذي يتجسَّد في الأعمال الأدبية كما يتجسَّد في سواها، من ذلك — مثلًا — نظرية التطور بكل فروعها، ونظرية النسبية، ونظرية المجال، ونظرية اللاتعيُّن والاحتمال، وقل ما شئت فيما يمكن أن يُفيده الناقد من الفلسفة حديثها وقديمها على السواء؛ من الوجودية، والظاهراتية، والمادية الجدلية، والوضعية المنطقية، فراجعًا إلى أرسطو وأفلاطون. ومن هنا جاء بحثي عن اشكالية تطبيق النقد الغربي على النص العربي وجاء موسوم بـ((المناهج النقدية وإشكالية تطبيقها على النص العربي...المنهج التاريخي والتفكيكي اختياراً))، وقسمته إلى مبحثين:

المبحث الأول: المناهج النقدية وتطبيقها.

المبحث الثاني: اشكالية التطبيق.

ثم خاتمة فيها أبرز النتائج، تليها قائمة المصادر والمراجع.

المبحث الأول

المناهج النقدية وتطبيقها

النقد الادبي قبل كل شيء هو الذي يبلغ الناس رسالة الأديب، فيدعوهم إليها ويرغبهم فيها.. أو يبعدهم عنها ويزهدهم فيها. وهو الذي يبلغ الأديب صدى رسالته في نفوس الناس وحسن استعدادهم لها أو شدة أزورارهم عنها أو فتورهم بالقياس إليها. فالنقد، نص هو الآخر، لكنه نص كاشف وليس منشئا، بمعنى أنه كاشف لنص قبله، وليس منشئا لفكرة أو صورة إبداعية، رغم أن النقد بوصفه نص، هو إبداع أيضا.[1] كلا النصين، لا يفترقان عن بعضهما، فالأول بحاجة الى الثاني والثاني، بحاجة الى الأول. ورغم أن النقد ليس هو الكوة

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الخامس الثلاثون – تموز ٢٠٢٤– محرم ١٤٤٦
ISSN-2536-0027

الوحيدة لدخول القارئ أو المتلقي إلى النص، حيث بإمكان المتلقي، هو يتولى بنفسه، مهمة الكشف عن مضامين النص.[٢]

وقضية المناهج وتطبيقاتها هي من القضايا الملتبسة التي شغلت بال وعناية الكثير من أهل الدراية في مجال البحث، وهو اهتمام يعبر عن مدى القيمة الحقيقية المتزايدة التي أصبحت تُعنى بها هذه القضية في مجال البحث العلمي بمختلف جوانبه ومستوياته. ولعل هذا ما يفسر بلا شك العدد الهائل من الدراسات والأطروحات التي أعدت في سبيل الوقوف عند جوهر القضية. بيد أن المتمعن في هذا الكم الهائل من الدراسات لا يجد ما يثلج الصدر ويشفي الغليل، إذ غاب عن أصحابها الوعي المنهجي فكانوا بعيدين عن عمق الإشكالية المطروحة في تشعباتها وأبعادها المختلفة.[٣]

في دراستنا للنقد العربي الحديث نجد أنه يواجه جملة من الإشكاليات الكبرى ربما تقف في مقدمتها إشكالية البحث عن منهج نقدي أو مناهج نقدية قادرة على استنطاق الخطاب الأدبي وقراءته بطريقة خلافة وما في هذه الاشكالية من جدلية وأثر، فقد ظلت مسألة المنهج في النقد أو النقد المنهجي، غير واضحة، وغير مستقرة في الممارسة النقدية لمعظم النقاد العرب منذ مطلع هذا القرن، وحتى وقتنا هذا. وكثيراً ما لمسنا اضطراباً فاضحاً في تحديد مفهوم المنهج ووظيفته وآليته، بل كنا نلحظ في أحيان أخرى غياباً كاملاً للمنظور المنهجي في الخطاب النقدي، الا أننا من جانب آخر لم تعدم ظهور بعض ملامح النقد المنهجي في تجارب عدد من النقاد العرب، إلا أنها ملامح لم تتكامل أو تتضح بصورة متوازنة. ويبدو أن الانفجار النقدي الراهن في مضمار النظرية الأدبية قد وضع إشكالية المنهج في الصدارة باعتبارها مهمة راهنة وملحة تتطلب المعالجة والحسم.[٤]

وهذا يدفعنا لمعرفة ما المنهج النقدي؟ وكيف سيؤدي هذا التعريف إلى أن نطبقه على النص العربي، شعرًا ونثرًا.

المنهج في اللغة هو الطريق الواضح، يقال: النَّهْج، بِفَتْح فَسُكُون ويعني الطَّرِيقُ الواضِحُ البَيِّنُ. وَهُوَ النَّهَج، محرَّكةً أيضاً/ وَالْجمع نَهْجَاتٌ، ونُهُجٌ، ونُهُوجٌ. وطُرُقٌ نَهْجَةٌ: وَاضحةٌ كالمَنْهَج، بالكَسْر. وَفِي التَّنْزِيل: {لِكُلّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً}،[٥] المِنْهَاجُ: الطَّرِيقُ الوَاضِح.[٦]

وفي الاصطلاح هي الطريقة الواضحة في دراسة النصِّ الأدبي، عبر طرق متعددة، ومناهج متفرعة ظهرت في الغرب، وهي أما سياقية أو نصيَّة، وبعبارة أخرى هو "طريقة التعامل مع النص الأدبي تعاملاً يقوم على أسس نظرية ذات أبعاد فلسفية وفكرية، وذلك من خلال أدوات إجرائية دقيقة ومتوافقة مع الأسس الفكرية المذكورة".[٧]

وللمنهج النقدي أهمية كبرى، وهي محل عناية عند النقاد ومن يريد فهم النص، ولا يستطيع الدارس أو الباحث أن يتوغل في أعماق العمل الأدبي توغلاً منظماً دقيقاً واضحًا إذا لم يتسلح بمنهاج واضح يضيء له الطريق، ويبصره مواقع أقدامه.[٨]

فالمنهج عبارة عن خطة يلتزمها الباحث أو الناقد لتحديد مساره، وضبط أفكاره لكي يمضي بحثه إلى هدف واضح محدد، " فهو الذى يتعلق بالدراسة الأدبية وبطرق معالجة القضايا الأدبية والنظر في مظاهر الإبداع الأدبي بأشكاله وتحليلها، وهو بهذا المفهوم يتحرك طبقا المنظومة خاصة به"،[٩] وهو على أي حال ثمرة من ثمرات انضباط الفكر ومنطقيته، وعمقه ودقته، ولم يعد اليوم مقبولاً في عصر العلم، وما أحرزه من تقدم هائل قائم على التركيز والضبط - أن يمضي أي باحث في أي درس مهما كان نوعه من غير منهاج يرسم له خطوات سيره، ويرسم أمام المتلقي كذلك هذه الخطوات.[١٠]

المبحث الثاني

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الخامس الثلاثون – تموز ٢٠٢٤– محرم ١٤٤٦
ISSN-2536-0027

اشكالية التطبيق

ليس مغيّباً عن المطلع على المشهد النقدي أن يجد أن هناك نزوعاً نحو تبني أفكار المناهج النقدية الغربية الحديثة، ومحاولة تطبيقها على الأدب العربي، وهذا التبني تنطوي تحته مجازفة كبيرة.[١١]

والسبب يعود في ذلك أن جميع المناهج الغربية "ترتبط بخلفيات إيديولوجية وفكرية، وهي تنبع من تصورات عقدية للكون والحياة والإنسان، فهي – بالتالي - ليست محايدة، وهي ليست مجرد آراء أو أفكار حول الأدب واللغة وطبيعتهما ووظيفتهما وقضاياهما وما شاكل ذلك فحسب، وإنما هذه الآراء –التي تختلف من ناقد إلى آخر اختلافاً يصل أحياناً إلى حد التناقض – صادرة عن الفلسفة الفكرية التي يتبناها هذا الناقد أو ذاك، بل هي -في حقيقتها - استلهام لهذه الفلسفة"[١٢].

فتعامل النقد الأدبي المعاصر، عند الغرب، مع الظاهرة الأدبية، كان مطبوعا بجهد إمبريقي مبالغ فيه أحيانا، في اختبار فروض دراساته، في أفق موضوعية مثالية. قد يكون ذلك بسبب طبيعة وخصوصية النص الأدبي عندهم. ربما... لكن بالنسبة لنا نحن العرب، فإن الظاهرة الأدبية، عندنا، قد وُسمت منذ الأصل بخصوصيات واضحة، ذلك إن تميزها عن نظيرتها الغربية، راجع بالأساس إلى بيئة منشئها التي ليست إطلاقا هي نفس بيئة منشئ الأولى.

وهذه المسألة طرحت، مسألة المناهج النقدية، في النقد الأدبي، في النصف الثاني من القرن العشرين، مجموعة من الأسئلة على النص الأدبي، في محاولة منها-الأسئلة- لجعله يتكلم وينطق بما يخفيه ويكتنزه، مطاردة بذلك جل دواله البنائية وكذا مدوناته الخفية. ولما كانت مرجعيات هذه الأطر المنهاجية، وهي في أصولها تعود إلى النظريات الفلسفية والإبستيمية الجديدة، متباينة ومتناقضة أحيانا، فإن حركية الاشتغال المنهاجي، في النقد الغربي باعتباره مؤسسا وسباقا، قد تميزت بنوع من الصراع – الصراع فيما بين هذه المناهج- والتجاوز القياسي واشكالية التطبيق.

لذلك نجد أن هناك خللاً في توظيف هذه المناهج، كون البيئة الحاضنة التي تجلت فيها ليست بيئتها التي وضعت لها. ومن ثم لا يمكن أن نجد نظرية خالصة؛ أي خالية من القضايا الإيديولوجية، وخلوها- هي أسطورة أكاديمية، "فتيارات الأدب القديمة الكلاسيكية والرومانسية حتى الواقعية كانت تتسمُ بهذا الطابع الأيديولجي لأنها كانت ترتبط بمبادئ عامة في الحياة تنتظم مظاهر النشاط الإنساني السياسي والاقتصادي والثقافي العام"،[١٣] وبعض النظريات لا تظهر إيديولوجيتها في أي مكان آخر بالوضوح الذي تظهر به في محاولاتها تجاهل التاريخ والسياسة تجاهلاً كلياً. ولا يفترض أن نلوم النظريات الأدبية لكونها سياسية، بل لكونها كذلك على نحو خفي، أو لا واع تماماً، للتعمية التي تقوم بها بوصفها مذاهب تقنية، بدهية، علمية أو شمولية صحيحة، في حين يمكن بتأمل بسيط رؤية أنها تتعلق بالمصالح المحددة لجماعات بشرية محددة في أزمان محددة وتعززها[١٤].

ولكي نتعرف ولو بصورة مبسطة على هذه الإشكالية، نطرح منهجين من المناهج النقدية احدهما سياقي والأخر نصي.

١. المنهج التاريخي:

يعرّف المنهج التاريخي على أنه: "منهج يتخذ من حوادث التاريخ السياسي والاجتماعي وسيلة لتفسير الأدب وتعليل ظواهره أو التاريخ الأدبي لأمة ما، ومجموع الآراء التي قيلت في أديب ما أو في فن من الفنون".[١٥]

وهو بهذا يكون تمهيدًا للنقد الأدبي الحقيقي؛[١٦] فهو بهذا يركّز على تحقيق النصوص وتوثيقها باستحضار بيئة الأديب والشاعر وحياتهما؛ فهو، في قول آخر، قراءة تاريخية في خطاب النقد الأدبي تحاول تفسير نشأة

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الخامس الثلاثون – تموز ٢٠٢٤– محرم ١٤٤٦
ISSN-2536-0027

الأثر الأدبي بربطه بزمانه ومكانه وشخصياته والأهم ببيئته، فكأن النص تاريخ للبيئة، أي أن التاريخ هنا يكون خادمًا للنص؛ ودراسته لا تكون هدفًا قائمًا بذاته، بل تتعلق بخدمة هذا النص.[١٧]

كما أن الناقد العربي يفتقد في كثير من تفاصيله إلى معرفة دقيقة بالمنهج، وكيف أنه يوافق رؤيته وثقافته العربية، "والسبب هو غياب الرؤيا المنهجية الموجهة لعمل الناقد والتباس حدود تعاطيه معها نظراً لتعدد صيغها وتضاد اشتغالاتها اصطلاحا وتنظيرا. وهذا ما يتطلب ضبط الجهاز الاصطلاحي من جانب ويستدعي من جانب آخر التعيين الإجرائي الموظف في ممارسة نقد النقد عبر اعتماد محددات منهجية وطروحات رؤيويه توحد الفعالية ما بعد النقدية وتوجهها مخرجة إياها من الحيز الإشكالي إلى الفضاء التخصصي، وبما يضمن لهذه الفعالية الديمومة ويمنحها السيرورة والنماء بعيداً عن التشتت والتعارض والاختلاف".[١٨]

في مثل هذه الحالات، لا بدَّ للناقد من التحقق من صحة الرواية الأدبية بالشك فيها وفي قيمتها وهل كتبت حقًا في تلك المرحلة، من حيث إن مبدأ الشك مبدأ علمي يجب أن يستعان به من أجل البحث عن الحقيقة وتوثيقها (في المرويات التاريخية والتراثية في شكل خاص) ومن أجل التحقق من مكان حدوث ظاهرة ما وزمانه، وصولاً من خلال ذلك إلى الحقيقة واليقين، وخاصة في الأدب الشفاهي. من ناحية أخرى، يتعامل هذا المنهج مع النص الأدبي كوثيقة تاريخية، فلا يلتفت إلى القيم الجمالية والفنية كثيرًا، أي لا يبحث في النص من حيث شكله الفني ومعماريَّته الجمالية وإيقاعه. وهو أيضاً يتكئ على ما يشبه سلسلة من المعادلات السببية فالنص ثمرة صاحبه والأديب صورة لثقافته، والثقافة إفراز للبيئة،والبيئة جزء من التاريخ،فإذا النقد تأريخ للأديب من خلال بيئته[١٩]

ومع الشك الذي يبذره هذا المنهج في النصوص الأدبيَّة فإن هناك ثلاثية وضعها الناقد الفرنسي هيبوليت تين[٢٠] تحدد مقولات هذا المنهج وهي (الجنس – البيئة والعصر)

فأما الجنس فهو الصفات الوراثية التي اكتسبها الأديب من شعبه، وقد حمله ذلك على الزعم على سبيل المثال «أن اليونانيين القدماء ومعظم الأوروبيين الجدد يتمتعون فيما بينهم بتكوين عقلي يجعلهم يختلفون عن الصينيين والساميين..»

وأما البيئة فهي المكان الجغرافي الذي يعيش فيه المبدع، ولابد أن يتأثر به، بما فيه من ناس وطبيعة ومناخ، وغير ذلك، فالإنسان لا يعيش وحيداً منعزلاً عن العالم، ولذلك لابد أن يؤثر فيه وفي تكوينه كل ما يحيط به، فالمناخ -على سبيل المثال – له أثره «فالمناخ الضبابي الكئيب للشمال. يتيح نوعاً واحداً من المجتمع، بينما سواحل الجنوب المشرقة والمشمسة تتيح نوعاً آخر.. وإن هنالك اختلافاً في نوع الأدب بين الإسكتلنديين والإيطاليين - على سبيل المثال - بالرغم من أن كليهما يعد آريا..»

وأما العصر فهو الزمن التاريخي الذي عاش فيه الأديب، وما شهده هذا أحداث سياسية واجتماعية واقتصادية، وما ساد هذا العصر من العوامل والظروف «إن الرجل الفرنسي الذي عاش في القرن الثاني عشر لا تتملكه الأفكار نفسها السائدة لدى فرنسي يعيش في القرن السابع.[٢١]

عن طريق ما سبق نستطيع أن نجد أن هناك إشكالية في تطبيق هذا المنهج على الأدب العربي بشقيه القديم والحديث، شعرا ونثرًا، فمبدأ الشك رغم الفعالية التي ينتجها في البحث والتفتيش عن الحقائق، إلا أنَّه يحطم الكثير من السرديات التاريخية، فهو لا يراعي المقدس وسواه، فكل نص حسب المنهج التاريخي هو وثيقة تاريخية يمكن محاكمتها والتشكيك فيها، وهذا ما جعل الدكتور طه حسين رحمه الله للتشكيك في مدى صحة التراث الشعري العربي من عدمه إذ يقول: "أول شيء أفجؤك به في هذا الحديث هو أني شككت في قيمة الشعر الجاهلي وألححت في الشك أو قل ألح علي الشك فأخذت أبحث وأفكر وأقرأ وأتدبر حتى انتهى بي هذا

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الخامس الثلاثون – تموز ٢٠٢٤– محرم ١٤٤٦
ISSN-2536-0027

كله الى شيء الا يكن يقينا فهو قريب من اليقين ذلك أن الكثرة المطلقة مما نسميه شعرا جاهليا ليست من الجاهلية في شيء وانما هي منتحلة مختلقة بعد ظهور الاسلام فهي اسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهوائهم، أكثر مما تمثل حياة الجاهليين"[٢٢]. فهذه النظرة للتراث أحدثت زعزعة للأسس التي يستند إليها أدبنا، والتشكيك به ربما ينهي مجمل ما وصل من الشعر.

كذلك بين الثلاثية التي وضعها تين هو الجنس، بمعنى الخصائص الوراثية الفطرية، إذ نرى أنه كان يهدف إلى التحيز للعرق، فهو " يزعم أن العرق له دوره في توريث بعض الخصائص الجماعية، ومنه يستنتج اختلاف صور الأدب واختلاف خصائصه عند شعراء كل أمة على حده، فهو يزعم مثلاً أن الشعراء الساميين ينقصهم الخيال الواسع والتعمق في الحكم على الأشياء "[٢٣]

وقد تأثر النقد التاريخي بالفلسفة الوضعية، وبنظرية دارون في تطور الأجناس عند الحيوان، وفي كتابه أصل الأنواع، وتأثر كذلك بالدراسات التي قامت حول السلالات والأجناس البشرية. وقد تعصب بعض الباحثين الغربيين -وهم يربطون الإبداع والعبقرية بالجنس، ويرون العمل الإبداعي محكوماً به - للجنس الآري الأوربي، حتى ذهب تين، إلى أن جنساً بشرياً ما هو أرقى من جنس آخر، ثم حملته العصبية إلى القول عن العقل السامي: إنه يفتقر إلى الميتافيزيقيا، وهو يجعل الله ملكاً متسلطاً ويفني، وهو عقل لا ينمو فيه العلم، ويضيق عن تمثل أعمال الطبيعة، ويجود فيه الشعر الغنائي المتوهج الزعم[٢٤]، فهذا التطبيق من المنظور الديني خطر، ولا يمكن بأي شكل من الأشكال التأقلم مع نظرة الإنسان للخالق، فهو مرفوض اسلاميا وعربيا.

وقد تجلى هذا الاتجاه لدى عدد من النقاد، مثل (عباس محمود العقاد) و الدكتور (طه حسين). الذي درس أثر الترف في العصر الأموي وأثر رغد العيش الذي تحقق لعدد من الأسر الحجازية مما انتج نوعا من الغزل اللاهي المترف. وزكي مبارك (١٨٩٣-١٩٥٢)، وأحمد أمين (١٨٨٦-١٩٥٤) على أن محمد مندور (١٩٠٧-١٩٦٥) يمكن عده الجسر "التاريخي" المباشر بين النقدين الفرنسي والعربي؛ فهو أول من أرسى معالم "اللانسونية" في نقدنا العربي، حين أصدر كتابه (النقد المنهجي عند العرب) مذيلا بترجمته لمقالة لانسون الشهيرة (منهج البحث في الأدب)، وكان ذلك في حدود سنة ١٩٤٦، ثم أعاد طبع هذه الترجمة (مرفقة بترجمته لمقالة مايبه "منهج البحث في اللغة") سنة ١٩٦٤.

من مجمل ما سبق يمكن أن نتتهي ونخلص إلى إن المنهج التاريخي يمكن تطبيقه على النصوص القديمة، بشرط عدم حمل الأيدولوجيات المتعلقة بهذا المنهج ومنظريه، كما لا ندرس – دائما- النص باعتباره وثيقة تاريخية، فهناك نصوص لا يمكن اعتبارها وثيقة تاريخية كالنصوص الدينية مثلا، لكن يمكن أن ندرس متتبعين سيرة المؤلف، ومراحل نشأته، والظروف التي أثرت فيه، بالإضافة لما تعكسه هذه الحياة من صورة للعصر، بقي أن نشير إلى أن من الآخذ على هذا المنهج أنه يصدر أحكاماً قطعية، أو آراء جازمة، لا سيما فيما يتعلق بالتاريخ، كالجزم بأن شعر الزهد إفراز للترجمة الهندية في عصر النهضة الإسلامية[٢٥]

٢. التفكيكية

بداية علينا أن نعرف أنَّ " التفكيكية " في أصلها لم توضع كمنهج نقدي، أو فني، وإنما هي مشروع فلسفي في القراءة وضعه الفيلسوف والناقد جاك دريدا يقوم بقلب كل ما كان سائداً في الفلسفة الماورائية سواء كان ذلك هو المعنى الثابت أو الحقيقة القارة، أو العلمية، أو المعرفة، أو الهوية، أو الوعي، أو الذات المتوحدة، باختصار كل الأسس التي يقوم عليها الخطاب الفلسفي الغربي. ويمكن القول إن دريدا يسير على أثر كل من نيتشه وهايدغر، لكنه تجاوز ما قد نادوا به حينما وجده لا يختلف عما قالت به الميتافيزيقا الغربية عبر تاريخها[٢٦].

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الخامس الثلاثون – تموز ٢٠٢٤– محرم ١٤٤٦
ISSN-2536-0027

وإذا كانت هذه المنهجيات التقليدية، والمنهج البنيوي من بعدها، تطمح إلى تقديم براهين متماسكة لحل الإشكال في عملية وصف الخطاب أو الاقتراب إلى معناه، فإن التفكيك يبذر الشك في مثل هذه البراهين، ويقوض أركانها، ويرسي على النقيض من ذلك دعائم في كل شيء، فليس ثمة يقين. ويكمن هدفه الأساسي في تصديع بنية الخطاب، مهما كان جنسه ونوعه، وتفحص ما تخفيه تلك البنية من شبكة دلالية. فهو من هذه الناحية، ثورة على الوصفية البنيوية، وهو يذهب إلى أن لا ضابط قبل التفكيك ولا ضابط في ظله، فهو رحلة شاقة، بل مغامرة محفوفة بالمخاطر، ولا يتوفر لها أدنى عامل من عوامل الأمان، في أودية الدلالة وشعابها، دون معرفة، دون دليل، ودون ضوابط واضحة. وكشوفاته ذاتية، فردية، لا غيرية، جماعية، حقله الدلالة، وتعويم المدلول المقترن بنمط ما من القراءة، أي استحضار المغيب. وهذا يقود إلى تخصيب مستمر للمدلول بحسب تعدد قراءات الدال، وبذا فإن تنازع القراءات فيما بينها للخطاب، يفضي إلى متوالية لا نهائية من المدلولات، لا يمكن لأحدها أن يستأثر بالاهتمام الكلي دون الآخر، فلا ضوابط رياضية توقف هدير المدلولات التي تستنفرها القراءات فتبدأ بالتشكل كالأجنة، مكونة بؤراً دلالية، وحقولا شاسعة لا يمكن تثبيت حدودها[٢٧].

يذهب الفيلسوف دريدا إلى أن البشر يرغبون في مركز،؛ لأن المركز يضمن لهم الوجود من حيث هو حضور، فنحن نفكر على سبيل المثال في حياتنا العقلية والمادية على أنها مرتكزة حول "أنا" وهذه الأنا هي مبدأ الوحدة الذي تقوم عليه بنية كل ما يدور في فضائها[٢٨]، فيعمد إلى تقويض هذا المركز لكي يبقى المركز لا نهائيا.

وفيما يشبه التنبؤ بالنقد الذي يتمحور حول عجز استراتيجية ومنهج التفكيك عن تقديم بديل أو بدائل للثوابت التي تدمرها بالمفهوم الهيديجري، يرفض دريدا في بحثه ذلك أن يقدم بدائل جديدة للمركز الذي دمره أو فككه وهز بنيانه، لأن ذلك، في رأيه، سوف يعني تقدم بديل سوف يتحول بدوره إلى مركز مرجعي ثابت. فرفض الإحالة لا تثبيت عدم الإحالة، ورفض الحضور لا يعني تأكيد الغياب كبديل، ورفض الوعي لا يعني: تأكيد اللاوعي. ثم إن البديل، أي بديل، سوف يتعرض لعمليات تدمير مستمرة حتى لا يتجمد ويتحول إلى جدار يحجب الكينونة في صورتها الأصلية وتأسيسها الأول، كما قال التأويليون.

إن الكتابة [ويريد بمعنى الكتابة، النص تحدد معنى بلا توقف لتبخره بلا توقف، منفذة عملية إعفاء منتظمة من المعنى. وبنفس هذه الطريقة فإن الأدب (من الأفضل أن نقول الكتابة) من خلال رفضه تعيين معنى نهائي للنص، (وللعالم كنص) يحرر ما يمكن تسميته بالنشاط المعادي للاهوت، نشاط ثوري حق، إذ إن رفض تثبيت المعنى، هو في النهاية، رفض لله وثالوثه ـ العقل، العلم، القانون[٢٩]

وهنا تكون الخطورة، بكون هذا المنهج لا يعترف بالثوابت دينية أو فلسفية، فهو لا يحترم وجودها بالتالي يقدم استراتيجياته التدميرية، وأيضاً هو لا بنائي إذ لا يحاول تقديم بدائل عمّا قوضه بالتالي يبقى المعنى عائماً، وهو كمال يرى عبدالله ابراهيم منهج شخصي ذاتي لا غيري جماعي، فكل مشتغل بالعملية التفكيكية باستطاعته صنع ما يشاء من الدوال بطريقته الخاصة، وهذا يفتح الأفق أمام وضع تأويلات كثيرة لنص واحد فقط، وهنا يبرز دور القارئ المادي. ومن مصطلحاته (الإرجاء / الانتشار والتشتت / فكرة الكتابة / التمركز المنطقي / الاختلاف).

فالتفكيكية اعتبرت الخطاب بنية متعالية على الجملة، فكشف بذلك عن إرادة القوة (نيتشه) آو الإرادة (هيدجر) التي تقبع داخل كل نسيج خطابي، وهي نقطة أثارتها مدرسة فرانكفورت وبلورها أدورنو بصفة خاصة.

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الخامس الثلاثون – تموز ٢٠٢٤– محرم ١٤٤٦
ISSN-2536-0027

والتفكيكية شأنها شأن كل نص فلسفي لا تخلو من بعض التناقضات والمآزق، وهذا شيء طبيعي فهي تعبر عن لحظة تاريخية وتقدم أجوبة معينة لأسئلة تطرحها المجتمعات الغربية بحدة في القرن العشرين[٣٠]

إنّ دريدا وأتباعه يعتقدون أن كل النصوص عرضة للتناقض والاستحالة الدلالية إنهم يعيدون إنتاج الأفق الهيغلي بطريقة غير مباشرة وبدون وعي كما لاحظ بعض النقاد والمفكرين أن النسق الفلسفي التفكيكي يفتقر إلى البعد السوسيولوجي التاريخي.

وهكذا استطاعت النظرية التفكيكية بوصفها منهجا التي ارسي دعائمها دريدا، أن تؤكد حقيقة نقدية لا يمكن تجاهلها او نكرانها، وهي إن اللغة أبعد ما تكون عن التعبير الموضوعي الشفاف، ولذلك يجب تناولها بقدر كبير من التشكّك وعدم اليقين، فاللغة بجميع أنواعها، هي لغة استعارية تعتمد في عملية التوصيل على إحداث تأثير أو تكوين صورة، وذلك لعجزها عن نقل الواقع أو الأفكار نقلا موضوعيا، ومن هنا كان التشكّك النقدي الذي تمارسه التفكيكية في دقّة المعاني المباشرة للغة[٣١].

وفي تطبيق هذا المنهج على الأدب العربي شعرا ونثرا نجد أن هناك أسماء حاولت تطويع هذا المنهج وتوظيفه في الدرس النقدي العربي، فإذا رجعنا إلى الخطاب النقدي العربي المعاصر فإننا نجد بعض الأقلام المتميزة التي اهتمت بهذه القراءة وحاولت تطبيقها على بعض النصوص العربية ومن أبرز هذه الأقلام: عبد الله الغذامي في مؤلفيه "الخطيئة والتكفير" و"من البنيوية إلى التشريحية"، و عبد المالك مرتاض في تطبيقاته على "حمال بغداد: تحليل سيميائي تفكيكي"، و"ألف ياء: دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة أين ليلاي لمحمد العيد آل خليفة، و"تحليل الخطاب السردي: معالجة تفكيكية سردية".

ويمكن أن نجعل الدكتور عبد الله الغذامي من اللذين نجحوا في توظيف حسنات هذا المنهج، إذ تقوم تشريحية عبد الله الغذامي، في جوانب أساسية من ممارسته النقدية على ما سماه مبدأ "تفسير الشعر بالشعر" الذي اتخذ منه شعارا نقديًا تصدر عنه قراءاته الشعرية المختلفة، يقوم هذا المبدأ على "إدماج كل قصيدة في سياقها، ولكل قصيدة سياق عام هو مجموعة شفرات جنسها الأدبي، وآخر خاص هو مجموعة إنتاج كاتبها، وهذان سياقان يتدخلان ويتقاطعان بشكل دائم ومستمر"[٣٢]

وعليه فإنّ التشريح يقوم على تفكيك النصوص إلى وحدات، يُعّملُ الناقد أدواته وذلك بتسمية كل وحدة وتحليل النّص الإبداعي إلى أصغر وحداته الجملة.

والجملة الشعرية عند الغذامي هي غير الجملة النحوية، إنها قول أدبي تام ليس له حدٌ قارٌ، فقد نجد قصيدة من خمسة أبيات لـدريد بن الصمة تشكل "جملة أدبية واحدة" لدى الغذامي[٣٣] الذي توقف عند بيتها الشهير:

وما أنا إلاّ من غزية إن غوت غويت، وإن ترشد غزية أرشد

فهذا البيت شاهد على العصبية القبلية التي كانت عند العرب، ولكن عندما أعاده عبد الله الغذامي لسياقه (جملته) تراءت دلالته مغايرة لما عهدناه، إذ أبان عن قمة الدلالة الديمقراطية.

إذن نخلص إلى من هذا يمكن أن نجد خطورة كبيرة في تطبيق هذا المنهج على تراثنا او حتى القضايا الكبرى؛ لأنّ هذا المنهج هو منهج هدام، ومن أكثر مقولاته هي إلغاء المؤلف والحكم عليه بالموت كما قال رولان بارث، وبهذا يصبح المؤلف ناسخا فقط لنصوص أدبية وتجاهل لمواهب الأدباء وفرديتهم وتميّزهم[٣٤]. وهذا من أكثر من المقولات خطورة فكيف لنا أن نقرأ قصيدة بعيدة عن سياقها الاجتماعي أو التاريخي؟!فنحن لا يمكننا ندرس قصيدة كمعلقة امرئ القيس بمعزل عن سياقها.

الخاتمة

والآن نقف عند أبرز النتائج:

١-المناهج النقدية في أصلها غربية، تحمل ثقافة الغرب، ورؤاه، وما في هذه الرؤية من اختلاف.

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الخامس الثلاثون – تموز ٢٠٢٤– محرم ١٤٤٦
ISSN-2536-0027

٢-تختلف هذه المناهج حتى تجعل من النص العربي نصًا بعيدًا عن حقيقته التي وضعه المؤلف، فتتجاوز الاعتبارات والدلالات الواضحة، وتجنح نحو تأويل بعيد، بسبب وجود علامة ما ومؤشر إلى هذا التأويل البعيد.

٣-من أبرز المناهج السياقية هو التاريخي، الذي يدرس النص، ويفسره باعتباره نصا يعبر عن تاريخ تلك المرحلة، ومن اشكاليته أن يبذر الشك في النص، وفي وجودها، مثلما فعل طه حسين في دراسته للشعر الجاهلي.

٤-التفكيكية التي جاء بها جاك دريدا الفيلسوف، تسعى إلى تفسير النصوص تفسيرا مختلفا، فهي تسعى إلى هدم الدلالات الواضحة، والمعنى الذي قد يفهم لأول وهلةٍ، واظهار ما في النص من تشظي واختلاف وانتشار، ولا تقول بأي شيء واضح، تحاول الهدم، وهو ما يتعارض مع العقيدة الاسلامية، والثقافة العربية، باعتباره منهجا هداما.

قائمة المصادر والمراجع.

١. إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر، عبد الغني بارة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥.
٢. تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، المحقق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.
٣. التمنهج ما بعد النقدي: غياب الرؤى والتباس التمرس، نادية هناوي، جريدة الصباح، ٢٠٢٠.
٤. الخطيئة والتكفير: عبدالله الغذامي، المركز القومي، مصر، القاهرة.
٥. دليل الناقد الأدبي: د. ميجان الرويلي د. سعد البازعي، المركز الثقافي العربي، ط٣، ٢٠٠٢.
٦. في الشعر الجاهلي: طه حسين، ط دار العارف، القاهر.
٧. في الميزان الجديد، محمد مندور، دار نهضة مصر، القاهرة: ١٥.
٨. في آليات النقد الأدبي، عبد السلام المسدي، دار الجنوب، تونس، ط١، ١٩٩٤.
٩. قراءة في كتاب بيار زيما، "التفكيكية دراسة نقدية": الطيب، بودربالة: ، ملتقى الخطاب النقدي العربي المعاصر قضاياه واتجاهاته، المنعقد بالمركز الجامعي، خنشلة، يومي ٢٢،٢٣،مارس، ٢٠٠٤.
١٠. اللغة الثانية، فاضل ثامر، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.
١١. ما هي الأبستمولجيا، محمد وقيدي، المغرب، ١٩٨٧م.
١٢. مدخل لمعرفة الآخر مدخل الى المناهج النقدية الحديثة: عبدالله ابراهيم واخرون.
١٣. المذاهب النقدية الحديثة مدخل فلسفي: محمد، شبل،الكومي: تقديم: محمد، عناني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٤.
١٤. المذاهب النقدية الحديثة مدخل فلسفي: محمد، شبل الكومي: تقديم محمد، عناني.
١٥. المرايا المحدبة: عبدالعزيز حمودة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت.
١٦. مناهج الدراسات الأدبية، حسين الواد، منشورات عيون المقالات، المغرب، ١٩٨٨: ٤٠.
١٧. مناهج النقد الأدبي، يوسف وغليسي، جسور للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٧.
١٨. مناهج النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق، ديفيد ديتتش، ترجمة محمد يوسف نجم، دار صادر،، بيروت.
١٩. مناهج النقد الادبي رؤية اسلامية، وليد قصاب، آفاق المعرفة للنشر، سوريا، ط١، ٢٠٠٧.
٢٠. مناهج النقد المعاصر، صلاح فضل، ميريت للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٢.

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الخامس الثلاثون – تموز ٢٠٢٤– محرم ١٤٤٦
ISSN-2536-0027

٢١. نظريات نقدية وتطبيقاتها، د. أحمد رحماني، مكتبة وهبة، القاهرة، ٢٠٠٤م.

الهوامش

[١] ينظر: مناهج الدراسات الأدبية، حسين الواد، منشورات عيون المقالات، المغرب، ١٩٨٨: ٤٠.
[٢] ينظر: ما هي الأبستمولجيا، محمد وقيدي، المغرب، ١٩٨٧: ١٠٩.
[٣] ينظر: إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر، عبد الغني بارة: ١٥.
[٤] ينظر: اللغة الثانية، فاضل ثامر، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٤م: ٢١٧.
[٥] المَائِدَة: ٤٨.
[٦] ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، المحقق: مجموعة من المحققين، دار الهداية: مادة نهج: ٦،٢٥١.
[٧] مناهج النقد الادبي رؤية اسلامية، وليد قصاب، آفاق المعرفة للنشر، سوريا، ط١، ٢٠٠٧: ١٧.
[٨] المصدر نفسه: ١٧.
[٩] مناهج النقد المعاصر، صلاح فضل: ١١.
[١٠] ينظر: مناهج النقد الأدبي الحديث رؤية اسلامية: ١٧.
[١١] ينظر: مناهج النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق، ديفيد ديتتش، ترجمة محمد يوسف نجم، دار صادر،، بيروت، ١٩٨٧.
[١٢] مناهج النقد الأدبي الحديث رؤية إسلامية: ٢٠ .
[١٣] مناهج النقد المعاصر، صلاح فضل: ١٦.
[١٤] مناهج النقد الأدبي الحديث رؤية إسلامية: ٢١ .
[١٥] مناهج النقد الأدبي : يوسف وغليسي ، ١٥ .
[١٦] ينظر: في الميزان الجديد، محمد مندور، دار نهضة مصر، القاهرة: ١٥.
[١٧] في آليات النقد الأدبي، عبد السلام المسدي، دار الجنوب، تونس، ١٩٩٤: ٧٩.
[١٨] التمنهج ما بعد النقدي: غياب الرؤى والتباس التمرس، نادية هناوي، جريدة الصباح، ٢٠٢٠.
[١٩] ينظر: في آليات النقد الأدبي : عبدالسلام المسدي ٧٩ .
[٢٠] كان هيبوليت أدولف تين (٢١ أبريل ١٨٢٨ - ٥ مارس ١٨٩٣) ناقدًا ومؤرخًا فرنسيًا. لقد كان التأثير النظري الرئيسي للنظرية الطبيعية الفرنسية.
[٢١] مناهج النقد الأدبي : ٢٦ – ٢٧ .
[٢٢] في الشعر الجاهلي : طه حسين ، ط دار العارف . ١٩
[٢٣] ينظر : نظريات نقدية وتطبيقاتها ، د. أحمد رحماني، مكتبة وهبة، القاهرة، ٢٠٠٤م، ١٢٠
[٢٤] النقد الأدبي الحديث : نصرة عبدالرحمن، ٣٩.
[٢٥] ينظر : مناهج النقد الأدبي الحديث : ٣٣ .
[٢٦] دليل الناقد الأدبي : د. ميجان الرويلي د. سعد البازعي، المركز الثقافي العربي، ط٣، ٢٠٠٢، ١٠٨ .
[٢٧] مدخل لمعرفة الآخر مدخل الى المناهج النقدية الحديثة : عبدالله ابراهيم واخرون ١١٣ .
[٢٨] المذاهب النقدية الحديثة مدخل فلسفي: محمد، شبل ،الكومي: تقديم: محمد، عناني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٤، ٣١٥.
[٢٩] المرايا المحدبة : عبدالعزيز حمودة : ٣٧٨.
[٣٠] قراءة في كتاب بيار زيما، "التفكيكية دراسة نقدية": الطيب، بودربالة: ، ملتقى الخطاب النقدي العربي المعاصر قضاياه واتجاهاته، المنعقد بالمركز الجامعي، خنشلة، يومي ٢٢،٢٣،مارس، ٢٠٠٤، ٢١١.
[٣١] المذاهب النقدية الحديثة مدخل فلسفي: محمد، شبل الكومي: تقديم محمد، عناني، ٣٢٠.
[٣٢] الخطيئة والتكفير : عبدالله الغذامي : ٨٤ ، عن يوسف وغليسي
[٣٣] المرجع نفسه : ١٩٣ .
[٣٤] ينظر: مناهج النقد الحديث : ٢١١